نقد الاستشراق في المجال العربي والإسلامي

"دراسة تحليلية نقدية للخلفيات الايدلوجية والاسس المنهجية لأهم اتجاهات نقد الاستشراق عند الباحثين العرب في العصر الحديث"

الأستاذ الدكتور
طالب جاسم العنزي
الباحثة
ساجدة عبد كاظم الحساني
جامعة الكوفة ـ كلية الآداب

Criticism of Orientalism in the Arab and Islamic field A critical analytical study of the ideological backgrounds and the methodological foundations of the most important trends of criticism of Orientalism among Arab researchers in the modern era.

Prof. Dr.
Talib Jassem Al-Enezi
Researcher
Sajida Abed Kazem Al-Hassani
University of Kufa - College of Arts

الملخص:

نقصد بالنقد الاكاديمي " العلمي" هو ذلك النقد الذي صدر عن باحثين عرب يتمتعون بالشروط والكفاءة العلمية المطلوبة في اختصاصاتهم، والتي تجعلهم مؤهلين وقادرين على التصدي لاطروحات المستشرقين بمنهج وادوات علمية رصينة، يقوم على نقد الاسس النظرية والمنهجية لتلك الاطروحات، اي انه نقد تكمن خصوصيته في ابتعاده عن استخدام كل شكل من اشكال المماحكات الإيديولوجيا والدعائية، وحرصه على تحليل مضامين النصوص الاستشراقية بتبني رؤية تصحيحية نقدية بناءة، وذلك عن طريق كشفه لمكان الجدة والابتكار في النص الاستشراقي وفي الوقت نفسه اظهار مكامن الضعف والخلل على مستوى الرؤية والمنهج في هذا النص، وهو نقد في غالبيته لا يصدر عن باحثين لهم مسبقات أو مصادرات أو قناعات ذاتية، بقدر ما يصدر عن رؤية تعترف ضمنياً بمكانة المنجز الاستشراقي وأهميته في التعريف بتراثنا وتاريخنا الاسلامي، وفي الوقت نفسه يؤمن بقدرتنا على مواجهة هذا المنجز والتصدي له بروح علمية، بحيث يمكننا مثل هذا التعامل على استنباط وتحديد طبيعة الأطر والقواعد المنهجية التي على اساسها يمكن الاستفادة منه وتوظيفه في مجالات البحث الاكاديمي.

الكلمات المفتاحية: نقد الإستشراق، الخلفيات الايدلوجية، الأسس المنهجية، المجالين العربي والإسلامي.

Abstract:

By "scientific" academic criticism, we mean that criticism issued by Arab researchers who enjoy the conditions and scientific competence required in their specializations, which make them qualified and able to confront the theses of orientalists with a solid scientific method and tools, based on the criticism of the theoretical and methodological foundations of these theses , meaning that it is a criticism that lies His peculiarity lies in his avoidance of using every form of ideological and propaganda contests, and his keenness to analyze the contents of Orientalist texts by adopting a constructive critical vision, by revealing the place of novelty and innovation in the Orientalist text and at the same time showing weaknesses and defects at the level of vision and approach in this text. It is a criticism in the majority that does not come from researchers who have prejudices, confiscations or subjective convictions, as much as it comes from a vision that implicitly recognizes the status of the Orientalist achievement and its importance in defining our Islamic heritage and history, and at the same time believes in our ability to confront this achievement and confront it in a scientific spirit, so that we can like This deal is based on deriving and defining the nature of the frameworks and methodological rules on the basis of which it can be used and used in the fields of academic research.

Key words: criticism of Orientalism, ideological backgrounds, methodological foundations, Arab and Islamic fields.

ـ نقد الاستشراق: البواعث ، الاسباب ، الغايات:

ان نقد الفكر الاستشراقي في المجال العربي والإسلامي، لم يكن منفصلا في شروطه ومحدداته وبواعثه عن السياقات والمراحل التاريخية التي ظهر من خلالها هذا النقد " ففي فترة الخمسينيات مرحلة نهوض الحركات القومية العربية، تلك المرحلة التي ساد فيها خطاب تعبوي، حمل الغرب مسؤولية تأخر الشرق عن ركب الحضارة العالمية، ففي حمّى سعير هذه النزعة المعادية للغرب، انصبت ردود على الاستشراق باعتباره جذرا تاريخيا لاستعمار العالم العربي، من دون تمييز بين مستشرق واخر، فاصبح الاستشراق بمثابة الوجه الاخر للاستعمار يحتم رفضه مواجهة الاستشراق بشدة، على وفق معادلة فيها من المفارقات ما يثير العجب، ذلك انها تجمع بين القبول بما حققه المستشرقون في تراثنا الفكري والادبي، ورفض ما نقلوه الينا فقط لكونهم مستشرقين [١].

وعلى أساس هذه المحددات والشروط التاريخية، التي ظهر من خلالها نقد الاستشراق في المجال العربي والإسلامي يمكن القول انه ربما " كان جدل جمال الدين الافغاني ومحمد عبده مع ارنست رينان وهانونو اول فصول هذا النوع من النقد، واذا كان نقض الافغاني وعبدة للدونية الغربية للإسلام والشرق قد انصب على النواحي المبدئية العامة ذات الطابع الشمولي مثل العقلية السامية والعقلية الآرية، واسهام الإسلام بتقدم المسلمين وتخلفهم فإن مطالع هذا القرن شهدت معالجات اكثر تعددا اذ ازدرد محمد رشيد رضا على كتاب اميل درمنكغام عن النبي، وحمل احمد شفيق باشا على الرؤيا الغربية الاستشراقية لمسألة الرق في الإسلام، وانصرف محمد فريد وجدي وطنطاوي جوهري لإثبات عقلانية الحل الإسلامي للمشكلات الحديثة في مواجهة عاداً إياه موقفا استشراقيا غير عقلاني عن الإسلام المعاصر وقضاياه، حتى إذا كانت ثلاثينيات هذا القرن فقد النقاش طابعه الهادئ نسبيا ليتحول الى اتهام مجرد للاستشراق الغربي في كل شيء[٢].

ان من الخصائص أو السمات التي ميزت هذا النقد، والتي ظهرت ابعادها واضحة في الاسهامات النقدية هو انه كان ذا منزع ديني وسياسي " إذ عُدّ الاستشراق في منظور هذه الكتابات مظهرا من مظاهر علاقة الشرق بالغرب، بل هو اكثر هذه المظاهر تفجرا وعدائية، فاذا كان الغرب قد غزا الشرق والإسلام عسكريا منذ قرون، فان الاستشراق - بنظر نقاده

المسلمين - رافق هذا الغزو بل تقدمه ومهد له الطريق على الجبهة الثقافية والفكرية، والحق ان هذه الرؤية للاستشراق لا تفرزه من دون سائر ظواهر الغرب، بل ترى فيه فصلا في مؤامرة كبرى على الإسلام والمسلمين أسسها الغرب، أيّاً كانت هوية هذا الغرب، فهو عندما كان مسيحيا أراد ضرب الإسلام لنشر المسيحية بالقوة والتبشير، هو عندما صار علمانيا أراد تخريب عقائد المسلمين لتضعف مقاومتهم فيسهل استغلالهم[٣].

هذا الامر يعني ان الأجواء السياسية المشحونة ضد الغرب، لم تسمح بتقييم النتاج الادبي والفكري للاستشراق بطريقة علمية " لان التراشق الكلامي طال كل المحاولات الرامية الى النظر الموضوعي في مضمون الاسهامات الاستشراقية، حتى ان الشكوك حامت حول كل المواقف التي تجرأت على الاعتراف بالوجه الحضاري المتقدم للغرب، حتى وان تفوه بها اعلام كبار كالشيخ محمد عبده والمفكر طه حسين وغيرهما ممن اعتنى بإبداعاتهم التاريخ العربي والإسلامي، بل اكثر من ذلك سجل عليهم مآخذ تمثل في عدم مجاراتهم لحس العداء للغرب، والامر المثير للغرابة في ان هذا الرفض العارم تزامن مع نقاشات جدية بين المستشرقين دارت حول قضايا لم يشعر أصحابها الشرقيون بضرورة المشاركة فيها، حتى ان تلك المواقف الأكثر اتزانا في مواجهة النزعة العنصرية في الاستشراق، كانت قد صدرت من مستشرقين اخرين لهم الانتماء الغربي نفسه التي انتقدته كليا الأكثرية المثقفة من العرب والمسلمين[٤].

وبعد ان سلطنا الضوء - بشكل عام - على طبيعة الشروط والمحددات والسياقات واللحظات التاريخية التي أسست لمشروعية نقد الاستشراق في دائرة الفكر العربي والإسلامي... سنحاول التوقف عند اهم تلك الاتجاهات النقدية التي افرزها هذا الفكر[٥]، وسيكون رصدنا لتلك الاتجاهات والتعريف بها، وبأهم اعلامها قائما على كشف الأسس والخلفيات الفكرية والايديولوجيا لذلك النقد وتحديد اثره وفاعليته على المستوى العلمي.

أما من حيث اهم تلك الاتجاهات والتيارات النقدية للفكر الاستشراقي في المجال العربي والإسلامي[٦] فهي وبحسب توجهات أصحابها تنقسم الى:

أولاً: النقد الاكاديمي "العلمي" خصائصه وابعاده وابرز ممثليه.

نقصد بالنقد الاكاديمي **" العلمي"** هو ذلك النقد الذي صدر عن باحثين عرب يتمتعون بالشروط والكفاءة العلمية المطلوبة في اختصاصاتهم، والتي تجعلهم مؤهلين وقادرين على

التصدي لاطروحات المستشرقين بمنهج وادوات علمية رصينة[٧]، يقوم على نقد الاسس النظرية والمنهجية لتلك الاطروحات، اي انه نقد تكمن خصوصيته في ابتعاده عن استخدام كل شكل من اشكال المماحكات الايديولوجيا والدعائية، وحرصه على تحليل مضامين النصوص الاستشراقية بتبني رؤية تصحيحية نقدية بناءة، وذلك عن طريق كشفه لمكان الجدة والابتكار في النص الاستشراقي وفي الوقت نفسه اظهار مكامن الضعف والخلل على مستوى الرؤية والمنهج في هذا النص، وهو نقد في غالبيته لا يصدر عن باحثين لهم مسبقات أو مصادرات أو قناعات ذاتية، بقدر ما يصدر عن رؤية تعترف ضمنياً بمكانة المنجز الاستشراقي وأهميته في التعريف بتراثنا وتاريخنا الاسلامي، وفي الوقت نفسه يؤمن بقدرتنا على مواجهة هذا المنجز والتصدي له بروح علمية، بحيث يمكننا مثل هذا التعامل على استنباط وتحديد طبيعة الاطر والقواعد المنهجية التي على اساسها يمكن الاستفادة منه وتوظيفه في مجالات البحث الاكاديمي.

إن طلائع ظهور مثل هذا النقد في المجال العربي والاسلامي، بدأت في العصر المعاصر في النصف الثاني من القرن العشرين، وبدءً من مطالع الستينيات نضجت على نحو جلي شروط مناظرة علمية مع الاستشراق من قبل نخبة من الباحثين والمفكرين العرب مختلفة عن ذي قبل، فبينما سادت لغة السجال الايديولوجي في قراءة اعمال المستشرقين لدى جمهرة من الكتاب العرب، كان اكثرهم منتسبا الى تيارات الاصالة -عمر فروخ، محمد البهي، انور الجندي...وغيرهم- وغمرت مساحة من الزمن امتدت حتى منتصف القرن اتت اسهامات جيل فكري في نقد الاستشراق تعيد تصويب النظر الى الموضوع، وتفرض قواعد جديدة لحوار تلتزم مقتضيات الدرس الاكاديمي وتقاليده، ويتعلق الامر في هذا باسهامات باحثين من امثال انور عبد الملك، وعبد الله العروي، وهشام جعيط، وادوارد سعيد، ومحمد اركون، ورضوان السيد.. الخ[٨].

ويمكن ان نضيف كذلك اسهامات كلٍّ من عبد الله ابراهيم، وسالم يفوت، ومحمد نور الدين افايه، ونديم نجدي، ومحمد الشيخ.. لتكون في ضمن الجهود التي تصب في التمثيل للابعاد الفكرية لهذا الاتجاه.

ان الذي ميز هذه النخبة من سابقتها انها كانت شديدة الاتصال بمصادر الفكر

الاسلامي، ومنغمسة في مجال دراساته، كالاولى سواء بسواء متشبعة بالثقافة الحديثة، مطلعة واسعة اطلاع على مدارسها وتياراتها، مستعملة المناهج عينها التي استعملها المستشرقون في دراسة تاريخنا الحضاري والديني والثقافي، ومن هذا الموقع المعرفي الذي كانت فيه استطاعت ان تخاطب الاستشراق بمفردات العلم، وان تطلق حواراً نقديا خصباً مع اطروحاته، مع انه من الصعب تماماً القطع بأن قدها خلا من اي ملمح ايدلوجي، الا انه ليس متعذراً ان نلاحظ انخفاض منسوبه في نصوصها ان نقيس بمنسوب النظر الايديولوجي في نصوص النخبات السابقة والمجايلة، التي تصدت من موقع فكرة الهوية والاصالة للرد على الاستشراق(٩).

ان اصحاب هذا الاتجاه وان تعددت زوايا النظر والمعالجة والنقد للفكر الاستشراقي بين باحث واخر، الا انهم وبخصوص الموقف العام الذي يصدر عنهم يكاد يكون هنالك اجماع بينهم، على ان الدراسات الاستشراقية وان هي قدمت خدمات جليلة للفكر الاسلامي، فإنها بقيت قاصرة عن استيفاء التراث الاسلامي حقه من البحث والدرس والتحليل، ذلك انه فضلاً عن محدوديتها فأنها كغيرها من الدراسات التي يتوجه فيها المستشرقون الى القارئ العربي يغلب عليها المنهج الفيلولوجي والوصفي التقريري الرتيب على التحليل العلمي العميق، لم تعد للدراسات الغربية القول الفصل، صار ثمة وعي بأن جانباً كبيرا مما ينتجه الاستشراق لا يستجيب للمقتضيات المعرفية الحديثة(١٠).

وكمثال لطبيعة التوجهات النقدية العلمية للاستشراق ما نجده في كتابات هشام جعيط لاسيما في كتابه "اوربا والاسلام" الذي استطاع من خلاله ان يطرح قضيتين اساسيتين شكلتا محور نقده للاستشراق: الاولى انه سلك في نقده خطاب اوربا حول الاسلام، مسلك الباحث الذي يزاوج بين منهج التاريخ النقدي ومنهج التحليل السيكولوجي للمعرفة، يقرأ الخطاب في تطوره التاريخي قراءة نقدية كاشفا عن مغلوطاته وعن عناصر التخييل فيه، في الوقت عينه الذي يميط فيه اللثام عن الدوافع النفسية العميقة والخبيئة التي تكمن خلف المواقف والافكار، بما في ذلك لعبة القلب وقيم النكاية والحقد، وغرائز العدوان المتولدة من ثقافة الانغلاق والتشرنق على الماهيات، ومنازع التفوق، والثانية: انه يناظر فكر اوربا مناظرة نقدية صارمة بوجدان عربي ومسلم وبعقل اوربي، يناقش اوربا من داخل اوربا: ينتظم في

تاريخ عقلانيتها، وقيم التسامح والحوار والتنوير لينتقد - بشدة - الوجه الظلامي فيها: خطاب للعنصرية والنبذ والاقصاء، وازعومات التفوق العرقي والقيمي والفكري لمجتمعات الغرب وثقافته(١١).

اما ما يميز الاسهامات النقدية لمحمد اركون في اعادة قراءة تراث الاستشراق المعاصر، انتباهها الحاد الى مكمن الخلل وموطن القصور في تراث الباحثين الغربيين في مجال الاسلاميات ليس منطلقاتهم السياسية ومخيالهم الديني والصور النمطية المتحكمة في وعيهم، ولا المضامين الايديولوجية للمعارف التي يكونونها عن موضوعهم -الاسلام والمسلمين- وانما هما الخلل والقصور في المناهج التي يستعملونها لبناء تلك المعارف، فلقد بدت له مناهج تقليدية وقاصرة عن توفير اسباب المعرفة العميقة والسليمة للموضوع المدروس، انها تقليدية لأنها تعتمد طرائق البحث الفيلولوجي -الفقه اللغوي- في تحقيق النصوص الموروثة عن القرن التاسع عشر، واساليب العرض والوصف المختفية وراء فكرة الحياد العلمي، ثم انها قاصرة بسبب احجامها عن الانفتاح الخلاق على مكتسبات العلوم الانسانية الحديثة ومناهجها بعد الثورة المعرفية التي شهدتها منذ منتصف القرن العشرين(١٢).

ان الاسس النظرية العامة التي يستند إليها اصحاب هذا الاتجاه، والتي توجه طبيعة عملهم لاسيما ما يتعلق منها بنقدهم لاطروحات المستشرقين تقوم على اساس ان التصدي الجدي لتحريفات الاستشراق ولتشوهات صوره عن الشرق يكمن اولا في الاشارة الى مواطن الضعف البرهاني في المكتوب الاستشراقي، بشكل يتوازى فيه مع مواطن الجدية والقوة المنطقية التي يجب ان نعترف بوجود بعض منها، أو بوجودها عند بعض المستشرقين(١٣).

هذا الامر يعني ان المنظور النقدي عند من ينتمون الى هذا الاتجاه، يبقى منظورا ذا رؤية شمولية متعددة الابعاد وليست احادية، فالتفريق بين الدور والوظيفة على مستوى المنجز الاستشراقي وكذلك التفريق بين المحتوى الايديولوجي والمعرفي، وكذلك التعامل مع هذا المنجز بنظرة تاريخية تأخذ في حساباتها ليس طبيعة المراحل والادوار التي مر بها، بل طبيعة التمايزات والاختلافات بين مدرسة استشراقية واخرى خصوصا في دراستها للتاريخ الاسلامي... كل هذه الابعاد تُعدُّ من المحددات والاسس العامة التي يشتغل في ضوئها

اصحاب هذا الاتجاه.

بل ان هذه المحددات تنسحب كذلك على دراستهم لطبيعة المناهج الاستشراقية نفسها، التي يولونها كثيراً من الاهمية، ويقرون صراحة بأنها قد خضعت في قسم من الدوائر الاستشراقية لكثير من المراجعة والنقد، لكن تبقى ابعاد وحيثيات هذه المراجعة -من وجهة نظر اصحاب هذا الاتجاه- ليست وليدة الصدفة، ولا هو من باب التحول غير المستند الى تبدلات الواقع السياسي -الاجتماعي والثقافي في الغرب، انما هو نتيجة طبيعية لتفاعلات الجدل والحوار بين مستشرقين يجب ان يدرسوا برأينا تبعاً لطبيعة الظرف التاريخي لكل واحد منهم، فإذا لم تؤخذ هذه العوامل بعين الاعتبار، يقع الباحث في فخ الشمول والتعميم، فيعجز عندئذ عن فهم فرادة المستشرقين واختلافاتهم المرتبطة بعوامل هي اكثر تعقيداً من ان تذوب بشكل مطلق وشامل في بوتقة ما سمي بالاستشراق(١٤).

ان ماهية الفكر الاستشراقي سواء من حيث المنطلقات والاسس أو الخطاب، عند معظم اصحاب هذا الاتجاه، هو انه يمتلك هوية تراكمية، وجماعية، هوية ذات قوة خاصة في ضوء ارتباطه بالمعرفة التقليدية -الدراسات الكلاسيكية، الكتاب المقدس، فقه اللغة- وبالمؤسسات العامة -الحكومات، الشركات التجارية، الجمعيات، الجغرافية، الجامعات- وبالكتابة التي يحدد طبيعتها الجنس الادبي الذي تنتمي اليه -كتب الرحلات، كتب الاستكشاف، الاستيهام، الوصف الغريب المدهش- وقد كانت النتيجة بالنسبة الى الاستشراق، تبلور نوع من الاجماع: اذ بدت اشياء معينة من الاعمال صحيحة بنظر المستشرق، وقد بنى هو عمله وبحثه عليها، ثم ضغطت هي بدور بشدة على كتّاب وباحثين جدد، من هنا يمكن عَدّ الاستشراق نهجاً من الرؤيا والدراسة والكتابة المقننة أو المشرقية، تسيطر عليه الضرورات الحتمية والمنظورات، والاهواء العقائدية الملائمة ظاهريا للشرق، فالشرق يدرس، ويبحث، ويدار، وتصدر عليه الاحكام بطرائق خفية محترسة(١٥).

وأيا يكن الموقف من الاستشراق، من الاختلاط دوافعه غير العلمية بالعلمية، تقتضي الامانة والموضوعية الاعتراف للمستشرقين بجزيل الفضل في الاعتناء بالتراث الفكري والثقافي العربي، وبتاريخ الاسلام السياسي والحضاري، وبما اسدوه من خدمات علمية جليلة في جمع ما تفرق من تراث الاسلام، وهنا وهناك مما لم يكن يعلم بوجوده احد من

العرب والمسلمين (ما خلا ما يصادفه من ذكر للمصادر في هذا الكتاب أو ذاك) كما في تحقيق نصوصه على الاصول العلمية، ونشرها نشرات لائقة انهم من أسس الدراسات الاسلامية في القرن التاسع عشر، وجذب اهتمام المثقفين والطلاب العرب إليها، والاقبال على قراءتها والانخراط في التأليف في قضاياها، وهو ما لم ينكره من تلامذتهم النهضويين الذين احتذوا طرائقهم في البحث والنظر(١٦).

فلسنا نبالغ حين نقول ان الجيلين الثاني والثالث من النهضويين تلامذة للمستشرقين، من طريق القراءة والاطلاع ابتداءً، ثم من طريق التعلم المباشر تاليا، ان بصمات ارنست رينان واضحة في كتابات فرح انطون، كما هي واضحة بصمات عولدتسيهر، ومرغليوث، ودوغويه، في كتابات جرجي زيدان من الجيل النهضوي الثاني، اما الجيل النهضوي الثالث جيل طه حسين، واحمد امين، ومحمد حسين هيكل، والشيخ مصطفى عبد الرزاق، وتلامذتهم من امثال عبد الرحمن بدوي، ومحمد عبد الهادي ابو ريدة....، فقد درسوا على المستشرقين مباشرة، في فرنسا وفي الجامعة المصرية التي كانت تعج بهم في فترة ما بين الحربين(١٧).

كذلك ساهمت الترجمة العلمية لنصوص الاستشراق خصوصا في فترة الاربعينيات والخمسينيات والستينيات ليس بالتعرف واشاعة المنجز الاستشراقي وتداوله في المجال العربي والاسلامي بل من خلالها نشطت حركة واتجاهات النقد العربي للاستشراق بكافة اشكاله، كذلك شكل الوعي بالاستشراق - لاسيما في هذه الفترات - رافدا مهما للرواد حركة النهضة العربية خصوصا في اعلام الجيل الثالث والرابع، وفي هذا السياق يذهب عبد الاله بلقزيز إلى القول ان تأثيرات المستشرقين في الفكر العربي قد "تجلت اكثر مما تجلت في تفكير الجيل المتأخر من النهضويين، الجيل الذي نما وعيه في حقبة ما بين الحربين، ودخل ميدان الكتابة والتأليف منذ نهاية ثلاثينيات القرن العشرين، ومرد ذلك الى اسباب ثلاثة مترابطه: اولها ان رموز الجيل هذا درسوا على اساتذة كانوا -هم ايضا- تلامذة للمستشرقين، نقلوا طرائقهم في الدرس والبحث الى الدرس الجامعي، وكان لدروسهم اثر كبير في توجيه طلبتهم نحو الدراسات الاسلامية، وفي دفعهم الى العودة الى نصوص المستشرقين، ومن هؤلاء طه حسين، واحمد امين، ومصطفى عبد الرازق، وقد تميزوا جميعا بحمل نظرة

تنويرية ليبرالية الى تاريخ الاسلام الثقافي، وثانيها ان هذا الجيل النهضوي المتأخر -جيل محمد عبد الهادي ابو ريدة، وعبد الرحمن بدوي، واحمد فؤاد الاهواني من مصر، ومحمد عزيز الحباني من المغرب، ثم محمد الطالبي من تونس، وعبد العزيز الدوري وصالح احمد العلي من العراق- اتصل بالاستشراق مباشرة عن طريق التلمذة للمستشرقين في جامعات عربية لاسيما في جامعات اوربية، فأكتسب من علاقته بهم وبتصديهم خبرات علمية ومنهجية عدة، وبعضهم انجز اطروحات جامعية باشراف مستشرقين، اما ثالثهما فيكمن في ان ميدان الدراسات الاسلامية، في الفكر العربي كانت قد تهيأت تربته في ذلك الحين من الزمن بما انجزه فيه مستشرقون ودارسون عرب من ابحاث ودراسات، وبدأ يكتسب انصارا جدداً من ابناء هذا الجيل النهضوي المتأخر، ومن خلال انخراطهم فيه، كانت الاواصر تتوثق بين هؤلاء وبيئات الاستشراق(١٨).

ويمكن لنا تلمس ابعاد النقد الاكاديمي "العلمي" للاستشراق عند واحد من اصحاب هذا الاتجاه وهو **هشام جعيط**، حيث انه وفي سياق طرحه لرؤية تفسيرية للفتوحات الاسلامية، يحاول ان يرد وبشكل ضمني على اطروحات لكثير من المستشرقين سواء من تبنوا بتفسيراتهم الديني/ السياسي، ام الاتجاه القومي/ العرقي، ففي سياق تفسيره لحادثة الفتوحات الاسلامية من ناحية الدوافع والغايات، يعتبر هشام جعيط انها -اي فكرة الفتح والفتوحات- كانت منبثقة من صميم تجربة الدعوة الاسلامية خصوصاً في العصر الاول منه حيث يقول "وهكذا تتضمن السلطة النبوية، وهي تكون ذاتها، فكرة فتح الخارج في بذرتها، ان اختلال نظام التجارة الكبرى، واستحالة تقديم افاق غنائم في الجزيرة العربية متأسلمة، وضرورة استناد هذه السلطة الى نجاحات مادية ملموسة، كل هذا لعب دورا كبيرا في جعل الدولة الاسلامية دولة موجه نحو الفتح، والحقيقة نظرا لان الامر يتعلق بدولة محايدة منذ ولاتها في فترة الهجرة، فان الفتح لم يعد عرضا بالنسبة اليها، انه ملازم جوهريا لوجودها، فقد كانت الطريقة الوحيدة لجمع القبائل في اتحاد، تكمن في تقديم هدف ملوف لديها، هدف البحث عن غنائم المتكرر دائما وابدا، فمن بدر الى حنين وفيما بعد ذلك الى تبوك، مرورا بالاستيلاءات المتابعة على الواحات اليهودية، لم تقم الدولة النبوية بغير متابعة الهدف نفسه، نقل عادات العالم البدوي مع رسائل اكبر ومطمح منتظم الى البيئة المتحضرة، واخضاع هذه المسيرة الحربية المتواصلة للتعالي الإلهية(١٩).

إن هذا التفسير يرجح ان فكرة الفتوحات الاسلامية هي كمبدأ، وكمشروع كانت ملازمة ليس فقط لتوجهات الدعوة الاسلامية، والتجربة النبوية، بل انها اساس مشروع الدولة العربية الاسلامية الذي اكتملت ابعادها السياسية والعسكرية في فترة النبي محمد ﷺ، وفي هذه الرؤية التفسيرية فأن هشام جعيط يرد وبشكل ضمني على اصحاب الاتجاه الديني / السياسي من المستشرقين خصوصا فان بلوتن، وهملت جب، وكارل بركمان الذي يرجعون ان فكرة الفتوحات قد تبلورت ابعادها بعد حروب الردة على اثر ازمة سياسية مرت بها الدولة الاسلامية بعد وفاة النبي محمد ﷺ فكان لابد -من وجهة نظر هؤلاء المستشرقين- في ان يقوم الخليفة ابو بكر بتحويل وجهة الصراع وغايته من صراع داخلي بين القبائل الى صراع خارجي يعتمد على مشروع الفتح، غير اننا نلحظ في تفسير هشام جعيط تأثره بأبعاد الاتجاه الاجتماعي/ الاقتصادي في تفسير الفتوحات الاسلامية، من حيث انه يجعل من اتحاد القبائل، التي شاركت في الفتوحات غايتها البحث عن الغنائم، بعد انسداد افق الحركة التجارية في الجزيرة العربية".

ثانياً: النقد الايديولوجي "خصائصه وابعاده وابرز دعاته".

ان توصيفنا لنقد الاستشراق والذي خرج من دائرة المجال العربي والاسلامي بالنقد الايديولوجي[٢٠] يعني هو ذلك النقد الذي حمل لواءه عدد كبير من الباحثين العرب ذوي الخلفيات والتكوينات الفكرية المتباينة وربما المتعارضة (اسلاميين، قوميين، لبراليين، يسارين...الخ)، والذين حاولوا وبحسب تلك الخلفيات والتوجهات بناء منظومة من التصورات والقناعات والافكار شكلت بمجموعها رؤية ايديولوجية شمولية انعكست اثارها المنهجية في التعاطي السلبي ام الايجابي مع اسهامات المستشرقين في مجال دراستهم للتاريخ والحضارة الاسلامية بشكل عام، والعقيدة والشريعة بشكل خاص.

ونظراً لتنوع مشارب وخلفيات وانتماءات أصحاب هذا النقد، فقد انسحب هذا الامر على طبيعة الاحكام والتقييمات وزوايا النظر والمعالجة للفكر الاستشراقي، فمن الباحثين من كانت عنده وجهة نظر نقدية متوازنة "معتدلة" للاستشراق، بحيث كان في نقده يفرز الجوانب السلبية والايجابية منه، ومنهم من "تطرف" وغالى في هذا النقد وعُدَّ الاستشراق فكرا وافدا ودخيلا، وهو بمثابة غزو فكري وثقافي غايته هدم مرتكزات الحضارة العربية والاسلامية، من دون تمييز بين مستشرق واخر، أو بين مدرسة واخرى.

وعلى اساس هذا التداخل في الرؤى والخلفيات وزوايا النظر والمعالجة للاستشراق داخل توجهات الباحثين العرب ضمن هذا الاتجاه... سنحاول تقسيم هذا النقد وبحسب الاسس المنهجية التي استند إليها في نقده للاستشراق الى:

١ـ النقد الذاتي:

ان النقد الذاتي من ناحية التوصيف والتعريف، هو ذلك النقد الذي حمل لواءه مجموعة من الدعاة والكتاب الاسلاميين - لاسيما ممن ينتمون بتوجهاتهم الى ما عرف بالإسلام السياسي - أو ممن يحملون نزعة سلفية أصولية في مقاربتهم لقضايا التاريخ الاسلامي، والذين حاولوا من خلاله نقد اطروحات المستشرقين في قضايا العقيدة والشريعة الاسلامية بشكل خاص، وقضايا التاريخ الاسلامي بشكل عام.

ان طبيعة التوجهات النقدية في مثل ابعاد هذا النقد - اي النقد الذاتي - سواء على مستوى المنهج أو الرؤيا كانت في منطلقاتها العامة لا تتأسس على المصادرة والاختزال، وعدم الالمام بتاريخ حركة الاستشراق ومراحله التي قطعها عبر هذا التاريخ فقط، بل ان هذا النقد قد صدر عن رؤية تبخيسية لمفهوم "العلم" نفسه الوافد من الاخر "الغرب" سواء على مستوى التلقي أو التقبل، فهذه الرؤيا النقدية محكومة عند دعاة هذا النقد بثلاثة مبادئ أساسية، هي:

١- ان العقل البشري عاجز عن ادراك الحقائق الكبرى في الكون، والعلم كله لله وحده.

٢- العلم اساسا العلم بكتاب الله وسنة رسوله واحكام الشريعة، ثم ما ينفع الناس في الارض.

٣- كل ما وفد من الغرب تحت اسم العلم فهو مردود ولا صلة له بالإسلام، ويهدف الى مسح الهوية الاسلامية وتشويه صورة الاسلام والمسلمين[٢١].

والذي يهمنا في سياق الكلام عن النقد الاسلامي "الدعوي" للمستشرقين، هو المبدأ الثالث الذي يرفض من حيث المبدأ علم وتعلم الوافد الينا من الغرب جملة وتفصيلا، بغض النظر عن قيمته ومدى اهميته في تطوير الحركة الفكرية والثقافية عندنا، لاسيما في مجالات الكتابة والبحث الاكاديمي.

اننا إذا ما حاولنا استعراض -وبشكل موضوعي- ما قدمه قسم من المستشرقين في قضايا الشريعة والعقيدة الاسلامية نفسها لاسيما ما تعلق باسهاماتهم في مجال فهرسة سور القرآن الكريم وألفاظه والاحاديث النبوية، ومجالات تحقيق النصوص التاريخية و اللغوية تأكد لدينا ان رفض هذا العلم الوافد بشكل مطلق فيه نوع من الاجحاف وعدم تقدير لتلك الجهود الاستشراقية في مثل هذه المجالات، فضلاً عن ان هذا الرفض للعلم الوافد بشكل مطلق، فيه خروج عن الرؤيا الاسلامية نفسها لمسألة طلب العلم واعمال العقل، وهو ما اكدته كثير من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية الدالة على هذا المعنى.

بل ان فضل المستشرقين لم يقف عندما اسدوه من خدمات للتراث العربي والحضارة العربية في جمع المخطوطات ونشرها وفهرستها وتحقيق المراجع وطبعها، ووضع الدراسات الموسوعية حول الادب العربي وتاريخه، وما ألفوه من معاجم وما قدموه للإسلام والقرآن الكريم من ابحاث ودراسات وفهارس وما سوى ذلك، بل ان فضلهم هذا لا يقف عند هذا الحد بل يشمل اجيالاً من الاستاذة العرب الذين درسوا اغلبهم اما في الجامعات العربية أو في الجامعات الاوربية والامريكية، واصدروا عنهم مناهج البحث التي نقلوها بدورهم الى طلابهم العرب(٢٢).

ان هذا الموقف الذي يصدر من دعاة هذا النقد وأعلامه، انما هو في الحقيقة يصدر عن احساس بالنقص والعجز عن مواكبة النسق السريع للعلوم الحديثة، ومنافسة الغرب الذي اخذ بزمام الامور في هذا الميدان، وهو كذلك يندرج في اطار محاولة يائسة الى بعث نوع من الطمأنينة في نفوس المسلمين واقناعهم بأنهم السباقون الى هذه العلوم(٢٣).

يضاف الى كل ذلك ان هذا النقد الذي يرفعه اصحاب هذا الاتجاه في مصادرتهم لمجمل النتاج الاستشراقي المقدم في مجال دراستهم للتاريخ والحضارة الاسلامية، وان هو يحاول ان يجد مبرراته ودوافعه تحت دعوى الحفاظ على اصالة العلوم الإسلامية وهويتها، الا انه في الوقت نفسه يحيلنا الى كيفية تشكل صورة الانا والاخر عند هؤلاء الدعاة الاسلاميين، فهذه الصورة بنظرهم تحاول ان ترفع من شأن الانا وتعطيها هالة من التفخيم، والاعتداد بالنفس والقوة، لكنها في الوقت نفسه تخفي من ورائها احساسا دفيناً بالظلم والنقص معا، بالظلم لان الغرب بنظر الاسلاميين لا يزال يعدّ الغرب استعماريا وصليبيا يكيد للمسلمين

ولدينهم، وبالنقص لإحساسهم بتفوق الحضارة الغربية وعجز المسلمين عن مسايرتها أو المشاركة في منجزاتها العلمية والحضارية، وهو احساس مزدوج لا يفصح عنه الاسلاميون دائما، ولكنه يظهر في خفايا الخطاب وفي المسكوت فيه من النصوص(٢٤).

إن على الباحث الذي يتصدى بنقد الاستشراق، ان يعنى بالوقوف على رؤى فكرية ثاوية خلف المنهج الاستشراقي التي تفجر طاقته الانتاجية، وذلك بنقد العقل الغربي الذي تصدر عنه، وتفكيك اليات اشتغاله على موضوعه، فضلاً عن كل ذلك على الناظر في الاستشراق ان ينظر ايضا في اسس تصور الثقافة الغربية التي ينتمي اليها العقل المذكور، وفي منطلقات تكوينها لتصوراتها لذاتها ولغيريتها الشرقية، اي في انتاجها لصورة الذات وصورة الغير(٢٥).

إن هذه الابعاد النقدية الواجب توفرها في اي نقد موضوعي للاستشراق نكاد لا نتلمس لها حضوراً في كتابات اغلب اصحاب النقد الذاتي، فهم لا تشغلهم مسألة انتاج معرفة ووعي نقدي موازٍ لما يطرحه المستشرقون في كتاباتهم كما عند اصحاب النقد العلمي للاستشراق، بقدر ما يشغلهم توصيف اشكاليات المستشرقين وتصنيفها حسب ما وردت على لسانهم وغالبا ليس من خلال نصوصهم الاصلية، بل بالاستعانة بترجمات عربية -قد لا تكون بالضرورة على مستوى الجودة والامانة في نقل مضامين تلك النصوص- ومن ثم محاولة اختزالها والحكم عليها، وهذه الاحكام تأتي غالبا متشنجة، انفعالية، لانها صدرت عن ذات مأزومة مسكونة بهاجس الاسئلة والاشكاليات التي طرحها المستشرقون، اكثر من كونها مهمومة بالبحث عن الاجوبة الموضوعية التي من خلالها يمكن لنا تجاوز محددات تلك الاسئلة.

ان هذا الفهم القاصر للاستشراق سهل لنا تعليق كل اسباب انحطاطنا وتخلفنا على هذا المشجب متعدد الالوان، فتارة لونه الغزو الفكري، وتارة التغريب الثقافي، وتارة اخرى التنصير، أو التبشير، والعلمانية، وحدد لنا مسبقا أساليب بحثنا فيه التي أبعدت الكثير من الابحاث عن الموضوعية العلمية فصرنا نبحث فيه فقط عن السلبيات فنضخمها، واذا تعثرنا صدفة ببعض الايجابيات حططنا من قيمتها وسوء القصد من ورائها، وقذفنا كل من يحاول اعطاءها قدرها التزاما بالمنهج العلمي بشبهة التعاطف والتعاون والتحيز معهم، وقد يصل

حماسنا لفهمنا وتصورنا وما نتباه دون غيره الى التشكيك في عقيدته... ان من ينكر علاقة الاستشراق لكل ما ينسب اليه في كتاباتنا، الاستعمار والتنصير في مقدمتها، يرتكب خطأ لا شك فيه ولكن من يقصر الاستشراق بوصفه مساعدا للاستعمار والتنصير لا يقل خطؤه عن الأول(٢٦).

ان هذا الفهم القاصر راجع ايضاً الى ان اثبات الهوية الذاتية في التاريخ والثقافة والسياسة، دفع بعض النخب المثقفة في الوطن العربي، وضمن دائرة العالم الاسلامي، الى ابراز مقومات الذات لمواجهة الفكر الاخر المستعمر والمهيمن، فتم النظر الى الفكر الاوربي باعتباره فكراً هداماً، ولم يتمكن دعاة الحركة السلفية، من ادراك تعددية الغرب في التاريخ والثقافة والسياسة، فانتقدت الانوار في سياق نقد الفكر الاغربي، دونة اي محاولة لفهم مختلف الابعاد التحررية والعقلانية الثاوية وراء فلسفة الانوار، وباستثناء التبرير التاريخي المباشر الذي يعلل به السلفيون موقفهم من الغرب، لا نجد في نصوصهم اي محاولة في تأسيس موقف نقدي من فلسفة الانوار، وغالباً ما كان يتم في نصوصهم هجاء الانوار، اكثر من نقدها بأساليب النقد الفلسفي والمناظرة العقلية(٢٧).

أما من حيث ابرز ممثلي اتجاه هذا النقد، في دائرة المجال العربي والاسلامي، والذين حققوا شهرة على مستوى الانتشار والتداول، فهم -من باب التمثيل لا الحصر- كلٌ من: أنور الجندي(٢٨)، محمد بهي(٢٩)، شوقي ابو خليل(٣٠)، محمد عمارة، عبد القادر حاتم، محمد قطب، حسن الهراري، محسن جمال الدين، ابو الحسن الندوي، محمد الغزالي، ناصر الدين الالباني، محمد بن سرور زين العابدين، مازن مطبقاني، محمد مصطفى هدارة، عبد المتعال الجيري، محمد طه بدوي، مصطفى السباعي، محمد احمد العزب، محمد بهاء الدين، اكرم ضياء العمري، جاد الحق علي جاد الحق، عرفان عبد الحميد، حسن عزوزي، محمد ابو شهبة، محمود محمد شاكر، عبد الرحمن حسن.

إن توجهات واهداف النقد الذاتي للاستشراق، ومن خلال الآليات المنهجية التي سلكها دعاة هذا النقد - والتي اشرنا الى ابعادها العامة سابقاً - لا تزيدنا معرفة بالاستشراق وتخلق لدينا الحصانة الفكرية من حيث الوقوع في دائرته - كما يراهن اصحاب هذا النقد بل بالعكس تزيدنا هذه الردود - وبهذه الرؤية المنهجية مزيدا من الجهل المركب

به، ذلك ان كل علاقة مع تاريخ الاستشراق تتأسس على منطق التضاد والتصادم قد اضحت غير ذات مضمون، وبالتالي فانه من غير المجدي الان ان نستمر في استفراغ الجهد والطاقة للرد على ما سماه شيوخ ومثقفو المسلمين منذ القرن التاسع عشر، بأطروحات المستشرقين "المغرضة" أو للتصدي لهذه الرؤيا الخاطئة أو تلك التي كونها وانشأها هؤلاء عن طبيعة العرب وعقليتهم، ان الخروج من حيال ذلك المنطق الدفاعي هو وحده الكفيل بتجديد تعاملنا مع الاستشراق، تارة على اساس حصره في نطاقة النافع، اي في باب نشراته وتوليفاته وتحقيقاته للنصوص العربية الاسلامية الكلاسيكية، وتارة اخرى بهدف تحويله الى "موضوع" ندرس من خلاله ذهنية واضعيه ونشده في شأنهم، وفوق هذا أو ذاك، يبقى ان كل انسحاب للاستشراق من ميادينا الدراسية في التراث والاجتماع لا يمكنه الا ان يزيد من شعورنا بجدية وخطورة المهام المعرفية الملقاة على كاهل فكرنا اليوم[٣١].

إن من هم الخصائص والسمات المنهجية لأصحاب النقد الذاتي للاستشراق، والتي ستتضح ابعادها من خلال نماذج ردودهم على الاستشرق بشكل عام، واسهامات مستشرقين بدراستهم للفتوحات اسلامية بشكل خاص - والتي سنأتي على ذكرها لاحقاً- هي ان تلك الخصائص تتميز: بالاطلاقية وتعميم الاحكام، وعدم ابراز التمايزات الواضحة بين مستشرق واخر، أو بين منهج استشراقي واخر، أو بين مدرسه واخرى، وهذه النزعة من النقد بالاضافة الى فضلاً عن أنها تؤدي الى تغييب للفوارق المنهجية بين مستشرق واخر، لاسيما في ما يتعلق بأبعاد اتجاهاته البحثية في دراسته للتاريخ الاسلامي، فأنها تحكم على تاريخ الاستشراق بمراحله واجياله على انه نسق معرفي واحد مغلق، غير قابل لمراجعة اسسه ومناهجه التي بنى عليه نتائجه واطروحاته حول دراسته لقضايا التاريخ الاسلامي بشكل عام، ودراسته للفتوحات الاسلامية بشكل خاص.

إن هذا الامر لا يؤيده حقيقة تاريخ الاستشراق نفسه إذ انه حصلت بداخله -وكما سنبين هذا الامر لاحقاً - كثير من المراجعات النقدية لمناهج ونتائج واحكام توصل اليها المستشرقون، اي ان دائرة الاستشراق لأنها تبقى متنوعة ومتعددة من ناحية الاسس والتوجهات العلمية والايديولوجية للمستشرقين انفسهم، كان قد حصل في داخلها نوع من المراجعة النقدية لواقع المنجز الاستشراقي نفسه لأن، - كما قلنا سابقاً - من طبيعة

التوجهات الاستشراقية حول دراسة التاريخ والعقيدة بشكل عام، تبقى مرتبطة تاريخياً، بطبيعة الدور أو الوظيفة التي اسندت لهذه التوجهات سواء من ناحية الاهداف أو الغايات التي تسعى لتحقيقه، فإذا كانت مثلا السمة الغالبة على مثل هذه الاحداث هو تعميق حدة الصراع المسيحي/ الاسلامي، نرى ان المنجز المقدم في هذه المرحلة من المستشرقين، والذي يخدم بطبيعته هذه الوظيفة سوف يحمل بمضامينه ابعاداً وسمات وخصائص مثل هذا الصراع الديني/ العقائدي، اما إذا كانت الاهداف والغايات التي يريد ان يصل اليها خطاب الاستشراق سياسية/ استعمارية، تشكل النتاج المقدم في هذه المرحلة بالنوازع الايديولوجية التي - عن طريق مضامينها - تبرر أو تخدم طبيعة اهداف هذا الخطاب، وتحاول ان تعطيه شرعيته في الهيمنة والاستمرار... وهكذا.

وتأسيساً على ما تقدم يتضح ان النقد الذاتي للاستشراق من ناحية الاسس المنهجية التي يقوم عليها تعمد عن قصد ان يتغاضى عن ذكر طبيعة الاختلافات والتمايزات التي تحدث بالدوائر الاستشراقية، وحاول اصحاب هذا النقد ان يختزلوا بدراساتهم تاريخ الاستشراق بالتشكيك المطلق لمصداقية كل اسهامات المستشرقين وفي المجالات ومن ثم محاولة محاكمتهم وادانتهم من خلال مجموعة من المستشرقين أساءوا بأطروحاتهم وما انتهوا اليه من نتائج في دراستهم لقضايا ومسائل تمس الاصول أو الثوابت العقائدية والاسلامية كالوحي، والنبوة، والقرآن... وعدّوا هؤلاء النماذج كأنهم يمثلون هذا الاستشراق بغض النظر عن تعدده واختلافه سواء من ناحية مدارسه، أو من ناحية مناهجه التي قاربوا من خلالها التاريخ والعقيدة الاسلامية.

٢ـ النقد الموضوعي:

هو ذلك النقد الذي وجه الى قضايا واشكاليات عدّة اثارها المستشرقون، في دراستهم التاريخ والعقيدة الاسلامية، والذي صدر عن باحثين عرب لهم مواقف ايديولوجية "فكرية" واضحة تتأسس مشروعيتها في واجب وضرورة الدفاع عن ابعاد الهوية العربية الاسلامية.

وبما ان الدين والتاريخ واللغة اكبر تجليات هذه الهوية، بل هي من الروافد الاساسية فيها، فتكون كل قراءة استشراقية تسيئ لهذه الابعاد هي محاولة - من وجهة نظر هذا الاتجاه - لطمس ابعاد تلك الهوية ومحاولة الطعن بأصالتها ومشروعيتها وتاريخيتها، على ان

اصحاب هذا الاتجاه، وان كانوا يتمسكون بموقف الدفاع عن مكتسبات الحضارة العربية والاسلامية ببعديها العقلي والنقلي، الا انهم في طبيعة ردودهم على الاستشراق ومضامينه يميلون الى الاعتدال والانصاف، ومحاولة الفرز والتصنيف بين الآراء السلبية والايجابية، اي انهم يعترفون ضمنياً بجهود ومساهمات استشراقية لكن في مجالات وأُطر محددة كتحقيق النصوص التراثية، والجهود التي قاموا بها في الفهرسة والتصنيف للمدونات التاريخية والادبية، الا ان اعترافهم هذا لا يصل الى حد الدعوة الى تبني مناهج المستشرقين في دراسة التاريخ الاسلامي -كما ينادي اصحاب الاتجاه الاكاديمي العلمي - على اساس الإفادة من معطياتها في قراءة التراث العربي والاسلامي، فهم في غالبيتهم يتحفظون، ويحذرون في الوقت نفسه من الوقوع في دائرة هذه المناهج والتأثر بها لاسيما في الاوساط الجامعية.

أما من حيث ابرز ممثلي اتجاه هذا النقد في دائرة المجال العربي والاسلامي، والذين حققوا شهرة على مستوى الانتشار والتداول، فهم - من باب التمثيل لا الحصر - كل من: محمد كرد علي، محمد خليفة حسن، قاسم السامرائي، عائشة عبد الرحمن، صلاح الدين منجد، عمر فاخوري، محمد حمدي زقزوق، ساسي سالم الحاج، عماد الدين خليل، محسن جاسم الموسوي، عبد الامير الاعسم، عبد الجبار ناجي، حسام الدين الالوسي، عبد النبي اصطيف، احمد شلبي، عبد الله علي العليان، مالك بن نبي، محمد مصطفى الاعظمي، محمد سليم العوا، مصطفى الشكعة، عبد الله بوتفر، خليل احمد خليل، شكيب ارسلان، هادي العلوي، علي حسني الخربوطلي.

أما من حيث اهم الخصائص أو السمات المنهجية، لأصحاب النقد الموضوعي في المجال العربي والاسلامي ، فتتمثل هذه الخصائص في ميل اصحاب هذا النقد - بنسب متفاوتة - الى عدم اطلاقهم لأحكام تعميمية، لا تفصل فصلا موضوعيا بين الآراء السلبية والايجابية للمستشرقين، كذلك تركيزهم في نقدهم للاستشراق على طبيعة الموضوعات التاريخية التي تصدى لها هؤلاء في دراستهم للتاريخ الاسلامي، وعدم انشغالهم كثيراً بالبحث عن الجوانب الذاتية للمستشرق سواء من ناحية حياته، وطبيعة ادواره واصوله - كما يفعل عادةً اصحاب النقد الذاتي - كذلك تقل عند اصحاب هذا النقد استخدام اللغة الانفعالية المتشنجة، ومحاولة التعاطي مع لغة بحث رصينة منضبطة ومؤطرة بقواعد الحوار الذي يكون

عادة بين الباحثين، بحيث تترفع هذه اللغة عن ان تكون تقريرية انشائية تتوسل بالسخرية والتهكم كآليات في الرد والانتقاد - كما يفعل اصحاب النقد الذاتي - فضلاً عن حرص اصحاب هذا الاتجاه في مجال نقدهم للاستشراق على محاولة الاعتماد على نصوص المستشرقين انفسهم، وليس النقل عنهم بالواسطة - كما يفعل عادة في دراستهم اصحاب النقد الذاتي-، واكثر من يمثل هذا الاتجاه من النقاد هم عادة يكونون من ذوي الارتباطات بمؤسسات جامعية، وحاصلين على القاب علمية تؤهلهم لان تكون دراستهم ذات صبغة اكاديمية، كذلك فإنهم - على عكس اصحاب النقد الذاتي - قل ما نجد عندهم توجهات أو اهدافاً دعوية، اي انهم في دفاعهم عن القضايا التي يثيرها المستشرقون لاسيما ما تعلق منها بالمس بثوابت العقيدة الاسلامية، يميلون عادة الى عدم التطرف في الرد الهجومي الحاد، وبالشكل الذي يجعل من تلك الردود كأنها سجال عقائدي بين رجال دين، كل منهم يحاول ان ينتصر لمذهبه، وانما يحاولون دفع تلك الاشكاليات على اسس وقواعد منهجية تتوسل النظر والمعالجة، بطرائق وادوات واليات البحث التاريخي.

هوامش البحث

(١) نديم نجدي، اثر الاستشراق في الفكر الحديث عند ادوارد سعيد، حسن حنفي، عبد الله العروي، (بيروت: دار الفارابي، ٢٠٠٥)، ص٧٦.

(٢) رضوان السيد، ثقافة الاستشراق ومصائره وعلاقات الشرق في الغرب، مجلة الفكر العربي، معهد الانماء العربي، بيروت، لبنان، العدد الحادي والثلاثون، اذار ١٩٨٣، ص١٥.

(٣) رضوان السيد، ثقافة الاستشراق ومصائره وعلاقات الشرق بالغرب، مرجع سابق، ص١٥.

(٤) نديم نجدي، اثر الاستشراق في الفكر العربي الحديث، مرجع سابق، ص٧٩.

(٥) من خلال تتبعنا لأغلب المقاربات المنهجية التي حاولت ان تصنف توجهات الباحثين العرب بالنسبة لتحديد موقفهم ورؤيتهم النقدية من الاستشراق، لم نعثر على اتفاق بينهم حول اشكال وانماط هذا التصنيف، لاسيما عندما تكون تلك المقاربات تريد ان تصل الى استقصاء منهجي موضوعي حول اشكال التلقي النقدي للاستشراق في المجال العربي والاسلامي، وصعوبة هذا الامر بتقديرنا راجع الى ان هذا الموضوع هو في طبيعته اشكالي وقابل للمقاربة النقدية من زوايا نظر متعددة، ومثال على هذا الامر ما نجده في تصنيف حسام الدين الالوسي مثلا، ففي قراءته للمشهد النقدي في الساحة العربية اتجاه

اشكال لانقد الموجه للاستشراق، يطرح حسام الدين الالوسي تصنيفا لاتجاهات النقد العربي للاستشراق على اساس اتجاهين، الاول: يضم في صفوفه من قال من الباحثين بأن الاستشراق لا يتبدل ولا يتطور، وهذا الاتجاه ممثلا -برايه- عند كل من احمد بن عبود، ومحمد وقيدي، وادوارد سعيد، والاتجاه الثاني: والذي يضم الباحثين الذين يذهبون على ان الاستشراق ظاهرة مؤقتة وله تطوراته حتى النهاية مع تقويم سلبياته وايجابياته، ويمثل هذا الاتجاه برأيه من المستشرقين مكسيم رودنسون، وجاك بيرك، ومن العرب طيب تيزيني، ونديم البيطار، والياس فرح، واخرون.. للاستزادة ينظر: الالوسي، حسام الدين، صور نقدية للاستشراق التقليدي والجديد أو تطور الاستشراق وتطور النظرة اليه، مجلة الاستشراق، دار الشؤون العربية العامة، بغداد، العدد الثالث، ١٩٨٩، ص٢٢-٧١... ومع وجاهة هذا التصنيف، قد صدر من باحث اكاديمي مختص بالفلسفة الاسلامية، وهو اصلا من خريجي جامعة كامبرج، وهو ايضا هاضم جيد ومتابع لأصول وروافد الفكر الغربي وكذلك كان من المتابعين عن قرب للمشهد الفكري للساحة العربية، الا ان هذا التصنيف لا يوصلنا الى وضع اطار نظري محكم بحيث يعطينا من خلاله استقراءً موضوعيا للانقسام الحاصل بين الباحثون العرب حول تعاطيهم النقدي مع الاستشراق، فهذا التصنيف همه ابراز جزء من الاشكالية التي يحمل توجهاتها هؤلاء الباحثين عن الاستشراق، ولا يكشف لنا الاسس المنهجية التي تؤسس لهذا النقد، فضلاً عن انه يقحم اراء المستشرقين الغربيين كمكسيم رودنسون، وجاك بيرك ويجعلهم جزءً من فضاء هذا النقد، في حين ان تلك الآراء من حيث سياقها العام تندرج في اطار المراجعة النقدية للاستشراق من داخله، وهي في احد ابعادها جاءت انعكاسا وردة فعل من ناحية النقد العربي الموجه للاستشراق، لاسيما من ادوارد سعيد الذي يدرجه حسام الدين الالوسي في الاتجاه الذي ينفي التبدل والتطور والمراجعة في تاريخ الاستشراق، علما ان هذه المسألة عند ادوارد سعيد هي جزء من اشكاليته حول خطاب الاستشراق وليس اطروحته المركزية.

وهنالك باحث اخر يذهب في تصنيفه الى الجهود العربية التي تصدت لنقد الاستشراق فيجملها في ثلاثة اتجاهات رئيسية، اولها: لم يتجاوز عتبة الوصف والتجميع المعجمي ذي الطابع التعريفي والمدرسي، وثانيهما: حصر نفسه في ضمن رؤية تقريضية للمستشرقين ولمجهوداتهم في خدمة التراث الاسلامي الذي لا يمكن انكارها أو تجاهلها، وثالثهما: الذي استقطب في الواقع اغلبها رد مجموع الجهد الاستشراقي الى اهواء المستشرقين ورغباتهم وميولهم المتربصة بالإسلام والمسلمين، انطلاقا من مواقع مليه وانتماءات عقدية واضحة، فنوقف في بلورة ردود فعل انفعالية ضد المستشرقين واستشراقهم واستنساخها، وغني عني البيان ان اصحاب هذا الاتجاه قد راموا بدراسة المستشرقين تحصين اهل جلدتهم من اطروحات هؤلاء وتنبيههم الى خطرها عليهم وعلى دينهم وثقافتهم... محمد عبد الواحد العسري، الاسلام في تصورات الاستشراق الاسباني، ط٢ ، (طرابلس: دار المدار الاسلامي، ٢٠١٥)، ص٢٦-٢٧... انما ما ذهب اليه الباحث في تصنيفه للاتجاهات الثلاثة التي انشغلت بالتصدي لتراث الاستشراقي على صعيد الدراسات العربية والاسلامية سواء كان منها ما اتخذ طابعاً تعريفياً أو نقدياً، وان كان فيه الكثير من

الموضوعية، الا ان هذا التقسيم يبقى في دائرة الوصف لهذه الجهود اكثر مما يعبر عن مسألة "الوعي" بها وبأبعادها، فالانقسام داخل هذه الاتجاهات بالنسبة لأنماط الكتابة عن الاستشراق وتعددها لم يكن من باب "تخصص" بقدر ما كان ينبع من اختلاف التوجهات والخلفيات والميول عند المشتغلين بحقل هذه الدراسات بأنفسهم.

(٦) ان تصنيفنا للاتجاهات التي واكبت عملية نقد المنجز الاستشراقي في المجال العربي الاسلامي الى نقد اكاديمي، ونقد ايدلوجي،..الخ هو بطبيعته تصنيف اجرائي شاع استعماله وتداوله في كتابات كثير من الباحثين العرب الذين اهتموا بدراسة ابعاد هذا الموضوع مثل عبد الله العروي ورضوان السيد وعبد الالهه بلقزيز وسالم يفوت وعبد الله ابراهيم وكمال عبد الطيف وشمس الدين الكيالي، ومحمد الشيخ... وغيرهم مع اختلاف في زاوية النظر والمعالجة... وقد قمنا بتوظيفه -اي هذا التصنيف- والاستفادة من معطياته ودلالاته في هذا البحث، لانه وبتقديرنا هو الاقرب إلى توجهات هذه الدراسة لاسيما من ناحية اظهار كيفية التعاطي النقدي مع اطروحات المستشرقين، وتبنينا لمثل هذا التصنيف -وان هو يعبر بالنتيجة عن توجهات الباحثة وموقفها من الفكر الاستشراقي بشكل عام- الا انه لا يعني الغاء أو مصادرة اي تصنيفات اخرى، قد تكون قاربت موضوع نقد الاستشراق في المجال العربي الاسلامي، بشرط ان تكون قد حققت تلك التصنيفات نوعا من الاجماع عليها من قبل الباحثين بناء على اصالتها وموضوعيتها، وليس بناء على الرغبة في اشاعة تداولها، فالمهم في اي تصنيف هو مدى صلاحيته الاجرائية بحيث يكون قادرا على الاحاطة الشاملة بالموضوع المدروس، علما ان استدعاءنا لمثل هذا التصنيف والتأكيد عليه هو من اجل الوصول ومن خلال معطياته الى معرفة اشكال وانماط النقد الذي وجهه الباحثون العرب الى التفسيرات والآراء والنتائج التي توصل اليها المستشرقون بخصوص دراستهم للفتوحات الاسلامية، اي ان هذا التصنيف ما هو الا خلفية نظرية على اساسها سيتم فرز طبيعة التوجهات النقدية العربية النقدية للاستشراق لاسيما ما يتعلق منها بطبيعة الردود التي وجهت لاتجاهات الكتابة التاريخية للفتوحات الاسلامية عند المستشرقين.

(٧) ان مقومات المنهج العلمي النقدي، وقدرته وفاعليته وكما يقول محمد عابد الجابري" تبرز في مستوى الوعي النظري، ومستوى التحليل والتأويل الذي ينجزه في الممارسة الاجرائية، وايضا في قدرته على التكيف مع النصوص التاريخية التي يعالجها، وبلورة طريقة فعالة لمقاربتها، في اطار علاقة جدلية بين الابداع والنقد والنص والمنهج..." محمد عابد الجابري، الخطاب العربي الحديث، ط١، (بيروت: المركز الثقافي العربي، ١٩٨٢)، ص١٢.

(٨) عبد الاله بلقزيز، نقد الاستشراق في الفكر العربي، ضمن كتاب: الثقافة العربية في القرن العشرين "حصيلة اولية"، اشراف عبد الاله بلقزيز،ط١، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١١)، ص٦٣٠.

(٩) عبد الاله بلقزيز، نقد الاستشراق في الفكر العربي، مرجع سابق، ص٦٣٠.

(١٠) محمد حمزة، اسلام المجددين، ط١، (بيروت: رابطة العقلانيين العرب ، ٢٠٠٧)، ص٣٣.
(١١) عبد الاله بلقزيز، مرجع سابق، ص١٥٤.
(١٢) عبد الاله بلقزيز، مرجع سابق، ص١٥٧.
(١٣) نديم نجدي، اثر الاستشراق في الفكر العربي الحديث عند ادوارد سعيد، حسن حنفي، عبد الله العروي، مرجع سابق، ص١٣٣.
(١٤) نديم نجدي، اثر الاستشراق في الفكر العربي الحديث عند ادوارد سعيد، حسن حنفي، عبد الله العروي، مرجع سابق، ص٧٧.
(١٥) ادوارد سعيد، الاستشراق، ترجمة كمال ابو ديب ، ط٣، (بيروت:، مؤسسة الابحاث العربية، ٢٠٠٧)، ص٢١٤.
(١٦) عبد الاله بلقزيز، نقد التراث، ط١، (بيروت: مركز الدراسات الوحدة العربية، ٢٠١٤)، ص٢٩.
(١٧) عبد الاله بلقزيز، مرجع سابق، ص٢٨.
(١٨) عبد الاله بلقزيز، مرجع سابق، ص٤٩.
(١٩) هشام جعيط، الفتنة "جدلية الدين والسياسية في الاسلام المبكر" مرجع سابق، ص٣٣.
(٢٠) ان مفهوم الايديولوجيا يحيل وبحسب ما ذهب اليه عبد الله العروي الى ثلاثة دلالات مفاهيمية، وذلك حسب استخدام الدراس له وطبيعة توظيفه لخدمة الموضوع الذي تصدى له، فهو - اي هذا المفهوم - قد يعبر "اولا عن ما ينعكس في الذهن من احوال الواقع انعكاسا محرفا بتأثير لا واعٍ من المفاهيم المستعملة، وثانيا نسق فكري يستهدف حجب واقع يصعب واحيانا يمتنع تحليله، ثالثا نظرية مستعارة لم تتجسد بعد كليا في المجتمع الذي استعارها لكنها تتغلغل فيه كل يوم اكثر فأكثر.." عبد الله العروي، الايديولوجيا العربية الحديثة، ط٤، (بيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠١١)، ص٢٩... وفي توصيفنا لاحد اشكال النقد الموجه للاستشراق= بالنقد الايديولوجي، والذي خرج من دائرة المجال العربي والاسلامي فإننا نقصد من حيث الدلالة المعنى الثاني الذي يحيل اليه هذا المفهوم، بمعنى ان هذا النقد يصبح والسبب هذا التوظيف هو ذلك النقد الذي نشأ ردة فعل لواقع فرض نفسه في المشهد الثقافي العربي اسمه "الاستشراق"، فمن خلال طبيعة مواجهته داخل دائرة هذا النقد تبلور خطان أو تياران، الاول: قام اصحابه بالتشكيك بأهلية هذا المجال وبغاياته واهداف العاملين بداخله من الباحثين الغربيين جملة وتفصيلا، وعدّهم بالمطلق اما عملاء لدول خارجية أو مسهمين لافكارهم في محاولة هدم تاريخ العقيدة الإسلامية وأصولها، والخط الثاني: من الباحثين العرب كانت مواجهتهم للاستشراق من حيث المنظور النقدي متوازنة، فاعترفوا بفضله في مجالات معينة وانكروا عليه معرفته في مجالات اخرى، ولقد وصفنا الخط الاول بأنه تيار ينتمي الى النقد الذاتي، وتماشيا مع البعد الايديولوجي الذي حمله هذا التيار فإنه وان ادعى اصحابه الدفاع والتصدي عن الموروث العربي والاسلامي، فان اسلوب مواجهتهم النقدية للاستشراق التي تمثلت بالمصادرة وتسقيط كل منجزات الاستشراق على طول تاريخه فانهم بالحالة هذه يحجبون ويضللون

وينكرون واقع هذا الاستشراق واثره في الساحة العربية، وذلك بتجاهلهم له ولحضوره ولابعاد تأثيره، لكن الخط الاخر من الباحثين العرب يمكن توصيف ممارستهم النقدية اتجاه الاستشراق بأنها تندرج في ما سميناه بالنقد الموضوعي، اي ان اصحابه من الباحثين لم يعلنوا القطيعة النهائية معه وسد باب الحوار كما فعل اصحاب النقد الذاتي فهذا بالنسبة لهم يعني حجباً لهذا الواقع والتمويه على تأثيره، وهو بحد ذاته يعني هروبا الى الامام وليست مواجهة، لذلك عمل هذا التيار على التفريق بين سلبيات هذا "الواقع"، و "ايجابياته" على مستوى الاسهامات التي قدمها المستشرقون.

ان طبيعة هذا الانقسام داخل الاتجاه الايديولوجي من ناحية تمثل المنجز الاستشراقي وتلقيه وكيفية التعامل النقدي معه يشير الى ان هذين الخطين أو التيارين، وان هما في النهاية يصدران عن نسق وبنية فكرية ونظرية واحدة، الا انهم عند التطبيق يختلفون في طبيعة طرحهم لاشكالية نقد الاستشراق داخل حدود هذه المنظومة أو النسق الفكري الذي يجمعهم.

(٢١) عبد الرحيم بوهاما، الاسلام الحركي، ط١، (بيروت: دار الطليعة، ط١، ٢٠٠٦)، ص١٠٧-١٠٨.

(٢٢) ميشال جحا، موقف العرب من المستعربين، مجلة الاستشراق، دار الشؤن العربية العامة، بغداد، العدد الاول، كانون الثاني، ١٩٨٧، ص٤٤-٤٥.

(٢٣) عبد الرحيم بوهاما، الاسلام الحركي، مصدر سابق، ص١٠٩.

(٢٤) عبد الرحيم بوهاما،، مرجع سابق، ص١١٨.

(٢٥) محمد عبد الواحد العسيري، الاسلام في تصورات الاستشراق الاسباني من ريمودس لولوس الى اسين بلاثيوس، المرجع السابق، ص٥٩.

(٢٦) سيد محمد الشاهد، الاستشراق ومنهجية النقد عند المسلمين، مجلة الاجتهاد، دار الاجتهاد للابحاث والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، العدد الثاني والعشرون، سنة السادسة، ١٩٩٤، ص١٩١-١٩٢.

(٢٧) سيد محمد الشاهد، مرجع سابق، ص١٩١-١٩٢.

(٢٨) صدر له في مجال نقد الاستشراق مجموعة من الدراسات، وتتضح نزعته الذاتية في النقد حتى في طريقة صياغته لعناوين كتبه، والتي من ابرزها:

- انور الجندي، سموم الاستشراق والمستشرقين، مكتبة التراث الاسلامي، القاهرة، ط٢، ١٩٨٥.
- انور الجندي، هزيمة الاستشراق في ملتقى الاسلام، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٨٢.
- انور الجندي، الاستشراق، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٨٣.

(٢٩) صدر له في مجال الاستشراق:

- محمد بهي، الفكر الاسلامي الحديث وصبته بالاستعمار الغربي، مطبعة وهبة،(القاهرة: د.ط، ١٩٩١).
- محمد بهي وعمر فروخ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، ط٢، (بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٦٤).

(٣٠) له في مجال نقد الاستشراق مجموعة من الدراسات ابرزها:

- شوقي ابو خليل، الاسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين، ط١، (بيروت: دار الفكر الحديث، ١٩٦٥).
- شوقي ابو خليل، اضواء على مواقف المستشرقين والمبشرين، ط١، (طرابلس: جمعية الدعوة الاسلامية ١٩٩٤).

(٣١) حميش بنسالم، العرب والاسلام في مرايا الاستشراق،ط١، (القاهرة: دار الشروق، ٢٠١١)، ص٢٠٥-٢٠٦.

قائمة المصادر والمراجع

١- ادوارد سعيد، الاستشراق، ترجمة كمال ابو ديب ، ط٣، (بيروت:، مؤسسة الابحاث العربية، ٢٠٠٧).
٢- حميش بنسالم، العرب والاسلام في مرايا الاستشراق،ط١، (القاهرة: دار الشروق، ٢٠١١).
٣- رضوان السيد، ثقافة الاستشراق ومصائره وعلاقات الشرق في الغرب، مجلة الفكر العربي، معهد الانماء العربي، بيروت، لبنان، العدد الحادي والثلاثون، اذار ١٩٨٣.
٤- سيد محمد الشاهد، الاستشراق ومنهجية النقد عند المسلمين، مجلة الاجتهاد، دار الاجتهاد للابحاث والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، العدد الثاني والعشرون، سنة السادسة، ١٩٩٤.
٥- عبد الاله بلقزيز، نقد الاستشراق في الفكر العربي، ضمن كتاب: الثقافة العربية في القرن العشرين "حصيلة اولية"، اشراف عبد الاله بلقزيز،ط١، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١١).
٦- عبد الرحيم بوهاما، الاسلام الحركي، ط١، (بيروت: دار الطليعة، ط١، ٢٠٠٦).
٧- عبد الله العروي، الايديولوجيا العربية الحديثة، ط٤، (بيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠١١).
٨- مجلة الاستشراق، دار الشؤون العربية العامة، بغداد، العدد الثالث، ١٩٨٩.
٩- محمد حمزة، اسلام المجددين، ط١، (بيروت: رابطة العقلانيين العرب ، ٢٠٠٧).
١٠- محمد عابد الجابري، الخطاب العربي الحديث، ط١، (بيروت: المركز الثقافي العربي، ١٩٨٢).
١١- محمد عبد الواحد العسري، الاسلام في تصورات الاستشراق الاسباني، ط٢ ، (طرابلس: دار المدار الاسلامي، ٢٠١٥).
١٢-ميشال جحا، موقف العرب من المستعربين، مجلة الاستشراق، دار الشؤن العربية العامة، بغداد، العدد الاول، كانون الثاني، ١٩٨٧.
١٣-نديم نجدي، اثر الاستشراق في الفكر الحديث عند ادوارد سعيد، حسن حنفي، عبد الله العروي،(بيروت: دار الفارابي، ٢٠٠٥).